فاصلة

قاسم محمد عباس

قصة

محيي الدين زه كه نه

القهقهة

خرج الغلام، ذو السنوات الثلاث عشرة على صوت ضربات عنيفات متواصلات.. بقبضة اليد على الباب لخارجي، من فرشه وهو في غاية الإنزعاج والذعر معا "ياربي، ماذا هناك" واندفع نحو الباب أشبه بزوبعة هوجاء:

-أحدهم يكسر الباب، أماتخرج لترى ما الأمر..

صرخ بجده ذي السنوات الثمانين.

إبتسم الجد بوجه حفيده، كما اعتاد أن يفعل دائما، إذيشق على روحه أن يرى الولد منزعجا أو غير مرتاح لأي سبب كان.

فسر غضبه للنقد الذي لم يسمع كلمة واحدة مما كان لسانه الذرب يطلقها لقد تعطلت سماعة أذنه منذ أكثر من أسبوع. ولم يعد بوسعه أن يسمع إطلاقا.. مدفع لو أطلقت على مبعدة أشبار منه، ولكنه استشف ذلك من حركة شفتيه لانتابعة للتسارعة، ومن ملامح وجهه التي تنغضن ومن وجنتيه للتهدلتين وهما تكتسيان بحمرة قانية، ومن يديه اللتين تتوجهان نحوه بحركات تهديدية متواصلة.. واضحة للغزى والهدف.. ولا تحمل تفاسير عديدة. بل تنطق بفصاحة، بكل ماينأجج في داخله من نيران الغضب والاحتداد. أو.. بالأحرى حدس الجد ذلك من خبرته الطويلة التي اكتسبها في تجاربه السابقة العديدة مع حفيده، إذ لم يكن ظلام الغرفة، ولا عيناه شبه للحلفاتين، ليسمحا له بأن يرى أكثر من شبح أسود قاتم، أشد قتامة من إنفعالية عنيفة، ثم تلمس طريقه مستعينا بعود ثقاب متوهج.. و.. خرج.

قال الجد في نفسه "لعله غاضب لأني تركته يغط في النوم حتى الآن.." ولكنه لم يلبث أن أضاف، مدفعا عن نفسه "ولكنه لم يكتب لي أية ورقة يحدد فيها الساعة التي يريد أن أوقظه فيها.." ثم، سرعان ماتراجع "أم.. أم.. لعله فعل ولم أر الورقة".

ضرب بكفه لهزيلة، وأنامله الناحلات على لحاجل، في الظلام الكثيف الذي يملأ الغرفة. بحثا عن مفتاح للصباح الكهربائي، فعثر عليه بعد بضع ضربات.. غير موفقات. فتحه، إلا أن النور لم يتدفق، كما كان يرجو.. والظلام ظل جاثما.. قال باستياء مكبوت "مقطوع.. التيار الكهربائي مقطوع." وأضاف بأس.. بات يعتاده "كما في كل يوم.".

أزاح ستارة النافذة الصغيرة الوحيدة في الغرفة إلى آخرها.. بيد أن الظلام الهيمن لم يتزحزح، فبيد شعيرة، إذ الغيوم السود قد غطت السماء تماما وهي تختق تحت طيلتها الثقيلة.. كل شعاع نور يمكن أن ترسله.. أو يفلت منها.. ضرب بيده هنا وهناك بحثا عن علبة الثقاب التي يضعها كل مساء تحت مخدته استعدادا لحالات الطوارئ التي استحالت، بقدرة قادر، إلى حالات مألوفة.. وبصورة يومية. لم يجدها في مكانها. إنهاتزحف دائما، بفعل تقلبه المستمر فوق الفراش، النوم المستعصي عليه.

مع تدفق وهج عود الثقاب وضع نظارته السميكة على عينيه، وألقى نظرة على الساعة الجدارية الكبيرة، وهو يقترب منها العود للتوهج. فصعق تماما. الواحدة؟ مستحيل.. إنها عطلة" وحين رنا إليها بعض الوقت ورأى عقرب الساعة يتحرك، تساءل "ولكن.. ولكن.. أين يذهب في الواحدة؟ أهي ليلة أخرى من ليالي حرسانه؟" ثم تساءل باستنكار ونفور "ماذا يوسع طفل في عمره أن يحرس؟ إن البندقية التي يحملونه إياها أطول من قامته".

لف البطلية حول جسمه الضئيل، وتناول عكازته وخطا نحو الطبخ لكي يعد للولد الإفطار الذي سيتناوله هناك، فمنذ أن فقد أبويه صار هو.. له.. الأب والأم معا..

كان للطبخ هو الآخر مظلما، فالظلام يملأ البيت، وربما الكون كله. وإذا كان الظلام بذلك القدر الريع من الكثافة في غرفة النوم. وهي تمتلك نافذة فكيف بمطبخ صغير، لانافذة فيه ولا فتحة، غير باب ضيق. يطل على ممر مظلم..؟

مهتديا بنور عود الثقاب الضعيف المتذبذب.. سار وهو يدق الأرض بعكازته بتؤدة وحذر.. نحو الفانوس الزيتي، الذي القمه أكثر من عود متوهج.. دون جدوى.. وإذ خطنه لكتشف أنه فارغ.. فتركه وراح يبحث عن شمعة.. أو بقايا شمعة. فمنذ أن شح النفط في الدينة. غدت الشموع أندر من القرش الأبيض في اليوم الأسود.

أشعل نصف الشمعة التي عثر عليها، وانصرف إلى إعداد الإفطار لحفيده الذي دخل عليه وهو أشد هيجانا وانفعالا، مما أوقع الجد، في حيرة وقلق شديدين، ولكنه ابتسم، كعادته، وتساءل بهدوء:

-ماذا هناك.. ياولدي.. مالذي جرى؟

راح الولد، يحرك شفتيه ورأسه وكل جسمه، ويرسم بكلتا يديه إشارات غريبة.. لايفهم منها الجد شيئا، بل تزيده حيرة وقلقا.. وحين هم أن يغادر للطبخ وهو في قمة إنفعالاته للتصاعدة.. أمسك به الجد.. بلا قسوة:

-أخبرني.. ياولد.. أكتب لي، ما الكارثة، هل اجتاح البلا دحلوفان؟ طاعون؟ حدث انقلاب؟

احتد الولد، أكثر. وكاديفقد رشده، ويرفع يده على جده، ولكنه تمالك نفسه في اللحظة الأخيرة، وفر إلى الحمام.

-الماء مقطوع يا ولدي، منذ الأمس الأول.. ولكني جمعت بضع قطرات للشاي.. تعال.. أصب على يديك.. تعال..

ولكن الولد، رفض بتزق الفتراح جده، الذي تعاظمت حيرته ودهشته من سلوك حفيده.. الغريب.. الذي لا يعرف له أي سبب.. ولايرى له أي موجب.

اختفى الولد في غرفة نومهما المشترك، هنيهة، ثم لم يلبث أن خرج مرتديا بدلته الرقطة، ذات "الكاكيات" الصفراء.. الشرشحة، حاملا بندقيته التي تفوقه طولا، وهو يتوجه نحو الباب، هاملا جده تماما..

-لن تجتاز عتبة الدار.. إذا لم تخبرني بما يجري.

اعترضه الجد بصرامة ثم أضاف وهو يقدم له ورقة وقلما:

-هاك.. هاك اكتب.

لم يجد الولد بدا من أن يأخذهما منه، ويكتب شيئا على عجل.. ويخرج مهرولا.. بسرعة. أخذ الجد الورقة. تحت ضوء الشمعة.. التي لم يبق منها سوى النبالة وهي تترنح وتهتز.. و.. توشك أن تنطفيء.. وفك ألغاز الخط الرديء الذي اعتاد عليه: "اليوم، يوم العلم، صدرت إلينا الأوامر، أن نمشحل، ونهنئ ساحة الاحتفالات.. للاحتفال، بعيد العلم".

عيد.. عيد.. ماذا؟" صرخ الجد.. وهو لا يصدق ماقرأ..

مسح نظارته، بعناية فائقة، ليقرأها ثانية، دفعا لكل التباس، وقطعا للشك الذي احتواه، وإذهم كانت النبالة قد قضت نحبها، وابتلع الظلام مساحة الضوء الضيقة التي خلقتها. وعاد يطبق على كل شيء.. ولم يملك إلا أن يستفيد ماقرأ في ذهنه، ثانية وثالثة.. وو.. وهو يدب بعكازته شاقا طريقه، بصعوبة بالغة وسط الظلام للتكوم في كل مكان، إلى سريره..

"عيد.. عيد.. عيد العلم؟".

ضحك في سره، ولم يلبث أن استغرق في الضحك، ضحك طويل متواصل. استحال بعد ثوان معدودات إلى قهقهة.. عالية صاخبة.. يهتز لها كل كيانه.. وتملأ أذنه الصماء.. وهي ما تفتأ تعلو وتصخب.. وتصخب وتعلو.. حتى كاد أن يسمعها ملء أذنيه.. وبدون سماعة الأذن..

نشرت في جريدة "الاتحاد" السليمانية في (2002/3/15) العدد 464 الجمعة.

باسم مستعار هو (سوران حمه علي).

دار الاوبرا

اقتراح سابق لأوانه

"الأوبرا فن من الفنون الجميلة التي انبثقت مبكراً في أوربا، إذ كانت بواكيرها بعد عصر النهضة ففي بلاط (مانتوا) في (ايطاليا) العام (1472) جمع (انجيليو بولتيسانو) بين الموسيقى والدراما في مسرحية قصيرة (خرافة أورفينو) لتشق طريقها الطويل الى الاوبرا. لكن انجازها الأول جاء متأخراً عن ذلك. ففي نهاية القرن السادس عشر ولدت (دافني) وهي أول أوبرا مكتوبة وصلت الينا ولم يمض إلا يسير وقت حتى افتتحت البندقية أول دار عامة لها عرضت فيها اوبرا مونتفيردي (ادوني) وذلك في العام (1639).
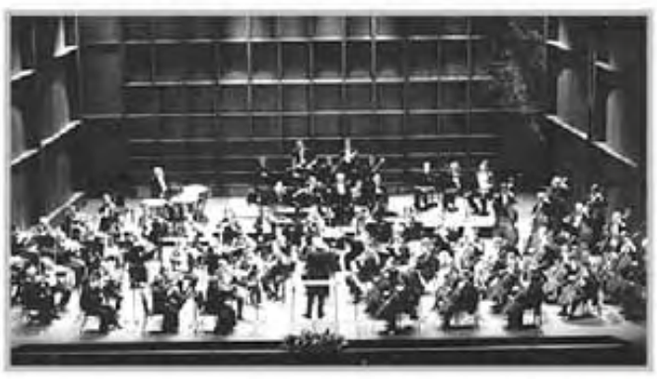
محمد مكي السيد جاسم

والاوبرا ظاهرة فنية يحيلها العنيون الى ظاهرة سابقة عليها هي ظاهرة نشوء المسرح اليوناني والنشيده الكورالية المبكرة والتي يظن انها متحدرة من الانانشيد (الاورفية) ذات الطابع الصوفي التفجعي، وعلاوة على ما للمسرح في بواكيره من رعاية لكثير من الفنون والفعاليات التي ضمت الرياضة والمجادلة القاتلة جنبا الى جنب مع الموسيقى والغناء فضلا عن تخصصه النهائي في فن التمثيل المسرحي، جاءت الاوبرا أخيراً وليداً طبيعياً لثراء خشبته القديمة.

فقد شغف الأغريق ومن بعدهم الرومان بالمسرح حتى كان مخططو مدنهم يبنون حواضرهم تلك حول قطب مرتكزها الأول والتمثل بالمسرح الداثري الذي تلتم حوله الدينة او تنسرح امامه بقوس هائل فقد كان لهامثابة القلب بالنسبة للجسد. ولقد التمست شعوبهم التمدينة بالحيوية الفكرية فضلا عن حب الحياة الدنية ومباهجها وبالاخص للسرح وعروضه التعددة الثيرة. ومنذ نشوء السرح اليوناني نشأت الدراجيديا والدراما جنبا الى جنب الكوميديا الهادفة وهي اصناف ادبية دخلت فيما بعد عالم الاوبرا واثرته.

ولايمدنا التاريخ بثوابت معمارية لمسارح سابقة على ما لليونان منها، إلا أن ثمة ارهاصات لتلك الظاهرة ولا يمكن نكرانها تقدمت عليها وسبقتها في الظهور والتمثلة بالاحتفالات الدينية السنوية في (بابل)، حيث تنتظم الحشود البشرية في منتصف آذار من كل عام في ساحات خاصة في تلك الدينة لتشاهد عشرات الغنين والمثلين والكهنة وحتى الشحاتين (الذي أبرز لهم دور مميز) بأزيائهم السرحية البهيجة واسلحتهم وعرباتهم ذات الخيول الحطمة وهم يؤدون اداور أتمثل ملحمة الخليقة والنشوء وبزوغ العالم وصراع الالهة الذي ينتهي باندحار قوى الشر وتكريس انتصار الخير.

تلكم هي احتفالية (الاكيتو) عيد رأس السنة البابلية والتي تحتل بطقوسيتها التمثيلية القدسة العاهل البابلي نفسه إذ يؤدي دور (البعل) الذي يموت ميتة فاجعة ويموته تعم الفوضى وتضطرب الحياة عدة أيام يتوج فيها ملك الشحاتين رمزا للفوضى التي تنتهي ببعث (البعل-الملك) من جديد فتستقيم أمور الدنيا بانتصار الخير وتنزل الآلهة حاملة معها القوانين التي تحكم الكون وتسيره لتسلمها للملك رمز السلطة الخيرة يومذاك. كل ذلك يتم ضمن نصوص تمثيلية غنائية تحدرت الى بابل من احتفالات سومرية سابقة ترسخت قبل ذلك بزمن بعيد والتمثلة ببكائية شعرية كانت تؤدى بالغناء المصاحب للموسيقى تمثل موت (دموزي) الفاجع وبعثه من جديد وسط احتفالية فرحة تعقب مناحة موته. ان هذه الشعيرة القدسة التي تمثل طقسا يلازم الفرازات الثقافة الزراعية والتمثلة بموت النبات ثم بعثه من خلال نبات حبوبه في ربيع كل سنة. ولم تتجاوز الضامين البكرة للاوبرا امثل هذه الضامين الوثنية بل اضافت اليها مشاهد لآلام السيد السيح ومحنته في موته وبعثه من جديد فهل هو مجرد مصادفة ام هو تناص للاحم الشعوب التي لعبت دور أي مثل هذا التوليد الستمر؟ ولسنا هنا بصدد مصادرة فن من فنون حضارة لنتجته وكانت أول من ابتدعه ورسخه بصورته الجمالية الحالية ولكن دورنا هنا التؤشر سبقا رياديا في التمهيد لولادة ذلك الفن الرفيع ولسنا مجانبين في ذلك منطق التاريخ فالحضارة في أحد معانيها جماع ماساهمت به ثقافات الشعوب في تسلسل ظهورها على مسرح الحياة.

وفن الاوبرا يعد بحق فن الفنون فهو فن جامع لفنون راسخة سبقته في الظهور على مضمار الحياة إذ يضم بين دفتية منظومة رائعة منها تتجلى في فن التمثيل والشعر والغناء والباليه والموسيقى فضلا عن الفن التشكيلي التمثل في تصميم وبناء الديكور واللابس.

ولقد كانت (مصر) السباقة في العالم العربي بل في الشرق الى تذوق ذلك الفن الرفيع فبداية نهضتها الفكرية الحديثة بإقامة مسرحها الجميل (دار الاوبرا) في عهد الخديوي اسماعيل والذي تزامن انشاؤه كما هو معروف مع افتتاح قناة السويس.

ولقد كان لمصر دور الريادة في تجارب جادة لانشاء أوبرا عربية نشط لها في عهد مبكر شعراء مصر وموسيقيوها و ملحنوها ومغنوها العظام. ولقد تم بعد ذلك انشاء معهد ملحق بها تخرج فيه دفعات متخصصة بذلك الفن الوافد الجميل. ولم يثن حريق دار الاوبرا الطموح الثقافي لشعب مصر في اقامة مسرح جديد محل مسرحه التاريخي الدمر ولقد كان للاوبرا اهتمام ولو جاء متأخرا في العراق إذ انشأت حديقة الاوبرا في عهد رئيس الوزراء الراحل عبد الكريم قاسم تمهيدا لانشاء دار الاوبرا العتيدة ثم أهمل ذلك الشروع لحضاري بعد انقلاب شباط (1963) لتموت الفكرة طيلة عقدين من الزمن ومن ثم تبعث من جديد في نهاية سبعينيات القرن الماضي إذ فكرت لحكومة السابقة بعد أن هيأت مساحة واسعة تطل على نهر دجلة من جانب الكرخ (السمى بالجمع الرئاسي) بإقامة دار للاوبرا! الا أن خيار الحرب وكوارثها كان لهما قصب السبق والاولوية على انشاء منجز حضاري نبيل.

وللاوبرا مع العراقيين اكثر من هذه الوشائج التي ذكرنا إذ تفخر مدينة (ويلز) البريطانية بصرح دار الاوبرا لديها والذي عد مبناه نموذجا لفن العمارة العالمي لتسعينات القرن العشرين وهو من الابنية التفكيكية النادرة في العالم العاصر قامت بتصميمه الفنانة العمارية العراقية (زهاء محمد حديد) لتعيد العلاقة بين العراق وفن الاوبرا ولكن هذه الرة في تكلتزا.

فمتى يا ترى نستطيع ان نبني صرحنا الحضاري الؤجل؟

جدار بين ظلمتين

مساءلة الوطن الذي صار سجناً

فاضل محسن

أدخل رفعة الجادرجي إلى سجون المخابرات العراقية مهندساً معمارياً كبيراً ليخرج منها بعد عشرين شهراً كاتباً كبيراً. ففي نهاية العقد السبعيني من القرن الماضي لفقت له تهمة مريبة ليمر برحلة العذاب الدامي التي أعدها النظام لكل من رغب العيش بكرامة تلك هي خلاصة الرحلة المهولة التي تذكرها الجادرجي ورفيقة دربه بلقيس شرارة في كتابهما المشترك (جدار بين ظلمتين) الصادر حديثاً عن دار الساقي.

ثقافة سجون النظام العراقي لا تذكرنا إلا من حيث كونها قبور رعب لسائر سجون الدكتاتورية التي قرأنا عنها في ما يعرف بـ"أدب السجون" إنها ليست أمكنة للحد من الحرية والتغريب إنها ماكينات لامتهان الذات وتغريمها عبر استهدافها الكبرياء الإنسان وكرامته كما إنها أماكن تسلية للقتلة والسفاحين ومرضى العصاب الأيديولوجي.

يؤشر كتاب "شرارة- الجادرجي" عرضياً التحول الخطير في الظاهرة الصدامية التي وسمت العراق الآن بميسمها. فقبل استلام صدام لرئاسة الجمهورية، عبر الإطاحة الريبة بسلطة (أحمد حسن البكر) بدأت تدب في روح الجتمع العراقي أخلاقيات جديدة لم تكن مألوفة فيه، وسرد وقائع هذه التسريبات من قبل شخصين مثل شرارة والجادرجي يمتلك طعما خاصا. بسبب من إنهما تربيا تحت سقف الأخلاق الليبرالية التي عرف بها جيل كامل الجادرجي من ذلك يكون الرصد أكثر عمقا ووضوحا عبر علامات الدهشة التي أبدياها من التبدلات العنيفة التي تطرأ على سلوكيات الناس الحيطين بهما.

لقد بين الكتاب الذي يمكن اعتباره وثيقة تاريخية من زوايا، اندفاع الجتمع العراقي نحو لهاوية بعد أن انسلخ تدريجيا عن ذاته حديثة التكوين لجتمع مدني توجهه الطبقة الوسطى والبرجوازية التي شهد العراق صعودها في الربع الأول من القرن الماضي.

لقد أصبح الفرد العراقي البسيط وحتى التعلم والذي خبر حياة الحرية عبر الدراسة في الغرب تابعا حقيرا النوع جديد من السلطة لم يسبق أن عرف مثله في تجارب الدكتاتوريات الأخرى، نظام فردي يندفع للحداثة والبناء بقوة ونرجسية دون توفر مبررات هذا الاندفاع الحداثي وشروطه العرفية. فيبدو لرواد الحداثة مقبول النتائج إذا ألم بالتوقف عند القدمات التي جاءت بهذه النتائج.

فالجادرجي الذي زج به في مستنقع عفونات سجون النظام بتهمة التعامل مع شركة بريطانية أخرج من السجن في الحملة العلاقة لإعادة بناء بغداد نفسها، بل من أجل مؤتمر قمة عدم الانحياز الذي تم تأجيله.. بغداد تبني من أجل ضيوف القائد.. هذا هو مفهوم النظام للبناء.

ليال سود عاشها الجادرجي في زنازين الدكتاتورية في غياهب القمل والقاذورات والرعب للتواصل وحفلات التحقيق. كان خلالها يدافع عن كرامته بشجاعة وبطولة. محولا هذا العيش إلى قراءة انثربولوجية قل توفرها في الأدب العالمي واستحال وجودها في الأدب العربي.

بعيني الهندس العماري راقب زوايا العتقل وشراسة كتله الأسمنتية. وبعين الهندس نفسها تفحص طرائق العيش وتكيفاته الإنسانية واصفا تبدلات الذات البشرية التي تدافع عن وجودها في قبور الحقد البشري التي يسميها النظام دوائر الخابرات. فتحطع الأغطية بشفرة حلاقة هربت خلسة إلى قطع وظيفية واحدة ماندة للأكل وأخرى للتنظيف وثالثة كمنديل يدوي. لقد استفاد من وعورة الجدران وخشونتها كمشاجب. أحسن توزيع لهبات الرحيمة كالتفاحات النادرات التي توزع مصادفة إلى وجبات مستمرة لأكثر من أربعة أيام.. سلوكيات كثيرة للانتصار على وحشية الحياة وقسوتها.

تفحص طرائق النوم والجلوس والاتكاء واستخدام الخبز ومراقبة الضوء والظل في القبر الذي حشر فيه مع ضيوف يتبدلون بين الحين والآخر. الحماما ت واستخدامها.

اقتصاد الوقت في الحركة والسير والهرولة، حركة حرس السجن وطريقة مناداتهم وإشاراتهم العضوية ودلالاتها، العتقلين والحركات الثقافية لسلوكياتهم في الزنزانة وخارجها وأخيرا الزمن ومراقبة عبر إشارات طبيعية وصناعية الضل، قرقعة قطار بعيد، دخول وخروج سيارات الضباط. تناوب الحراس.. الخ.

كتاب "جدار بين ظلمتين" يكتسب أهمية استثنائية لكونه جاء من رجل يعد من صناع مشروع الحداثة العراقي ومن أكبر رموزه حضورا سيما في عقد التسعينات بعد أن تم فتح ملف هذا الشروع من قبل الأجيال الجديدة في العراق وبدأ هوس فعلي بتجربة جواد سليم وجماعة بغداد للفن الحديث. وظروف إنشاء النصب الأكثر رسوخا في قلوب العراقيين "نصب الحرية" الذي تقاسم الجادرجي إبداعه مع جواد سليم. ولحسن الحظ كان الجادرجي قد دشن مرحلة الكتابة والنشر في عقدي الثمانينات والتسعينات مما جعل كتبه هي الأخرى تستنسخ وتباع ضمن الكتب الممنوعة التي هربت إلى داخل الوطن وأعيد نسخها مرات عديدة لتطلع عليها شريحة واسعة من الثقفين الراغبين في بحث جذور الظاهرة الحداثية في منتصف القرن الماضي وأسباب انقطاعها على أيدي الأمية العسكرية التي زحفت إلى السلطة بدعاوى التحرر الوطني.

يبدو لي أن الكتابة عن مثل هذا الشروع في هذا الظرف توقيت مناسب ليس من أجل نبش قبور النظام بقدر من كونه درسا في الانتصار على الشر بالإبداع.

في الجانب الآخر من ظلمة الزنازين التي مر بها رفعة الجادرجي كانت بلقيس شرارة تعيش الزنزانة الأكبر التي اسمها الوطن. لقد جاءت الأجزاء التي كانت حصتها في الكتاب لترصد التدرج اللوني القاتم الذي بدأ يشبك نهار العراق بليله. حيث بدأت أنفاس صدام تلوث هواء الوطن وتغير نفوس أبنائه من الذين خذلتهم لحظة البطولة الفطرية للإنسان فتحولوا إلى ضفادع جبانة.

جاءت مراقبة شرارة لوقائع الحياة اليومية للناس تصويرا دقيقا للتبدلات الخفية التي تسلخت فيها الدولة عن ذاتها لتصبح رجلا تلفزيونيا بالغ الإثارة والرعب والتشويق في آن.

-هل رأيتم سجينا حكم بالؤبد لتخريبه الاقتصاد الدولة يشرح لرئيس جمهورية مشروع إعمار العاصمة؟ حدث ذلك في زمن صدام وعلى شاشات التلفزيون.

-لقد سقط الجدار الذي بين ظلمتين وها نحن في ظلمة قاسية لكنها ولحسن الحظ بلا جدران.